أوراق ثقافية

٤

التراث والحداثة والتنمية

السيد محمد خاتمي

مركز فلسطين للدراسات والبحوث

التراث والحداثة والتنمية

مركز فلسطين للدراسات والبحوث

أنشئ « مركز فلسطين للدراسات والبحوث » بقطاع غزة في العام ١٤١٧هـ الموافق ١٩٩٦م كمؤسسة أكاديمية مستقلة للمساهمة في تنمية الوعي الفكري والسياسي في المجتمع الفلسطيني.

ولتحقيق أهدافه يهتم المركز بدراسة وبحث القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية والثقافية والحضارية المتعلقة بالهم الفلسطيني والعربي والإسلامي.

وتوقاً لتحقيق إنجاز مميز، يحاول المركز المساهمة في خلق بيئة أكاديمية منفتحة وإبداعية أمام العلماء والمفكرين والباحثين.

بالإضافة إلى برامج البحوث والدراسات، يعقد المركز المحاضرات العامة والندوات وورش العمل البحثية المتخصصة.

وفي إطار رسالته، يصدر المركز سلاسل من الكتب والتقارير والأوراق البحثية غير الدورية بالإضافة إلى مجلة « فلسطين ».

* * *

الطلبات والمراسلات ترسل إلى العنوان التالي:

مركز فلسطين للدراسات والبحوث

ص.ب ١٣٥٤

غزة - قطاع غزة

هاتف: ٨٢٠٠٣١ - ٩٧٢٧

فاكس: ٨٩٢٩٣١ - ٩٧٢٧

العنوان الإلكتروني: psr @ rannet.com

أوراق ثقافية ـ ٤

التراث والحداثة والتنمية

السيد محمد خاتمي



مركز فلسطين للدراسات والبحوث

الطبعة الأولى ـ ١٩٩٨

محتوى الدراسة لايعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز.

المحتوى

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

«في الغد سوف تخطو البشرية خطوات أبعد مما وصلت إليه حضارة اليوم، ولا شك عندي من مجيء ذلك الغد، وفي أن من سيبلغه أولاً إنما هو الذي يعي ماضيه ويتطلع في الوقت عينه صوب المستقبل. وليس المتحجرين التقليديين الرازحين تحت أغلال الماضي ولا أهل الحداثة السطحيين المبهورين بهيمنة العصر وظواهره».

بهذه الكلمات يلخص حجة الإسلام والمسلمين السيد محمد خاتمي حقيقة التدافع الكوني الراهن ومن سيكون الفائز في السباق الحضاري الرهيب الذي تشهده البشرية اليوم وغداً.

السيد محمد خاتمي الذي فاجأ وأذهل العالم بفوزه الكاسح بانتخابات رئاسة الجمهورية الإسلامية الإيرانية بأكثر من ٧٠٪ من الناخبين جُلّهم من الشباب والنساء، سيفاجئ الكثيرين من القراء في طروحاته وأفكاره التي تنم عن فهم عميق للإسلام والعصر.

الرئيس خاتمي الذي يستقل الباص من منزله إلى مكتبه في رئاسة الجمهورية أحياناً للتعرف على مشاكل الناس وهمومهم عن كثب والإستماع إلى آرائهم وتفاصيل حياتهم اليومية، يشكل نمطاً جديداً من القادة والرؤساء لم تعهده أمتنا في هذا العصر.

السيد محمد خاتمي يفتح أعيننا وعقولنا في هذا النص(*) على كثير من الأسئلة التي تتعلق بحركة التجاذب في الأمة بين قطبي التراث والحداثة.. بين مدارات الماضي والمستقبل وكيف تستطيع الأمة بينهما تحقيق التنمية والتقدم والنهوض الحضاري بعد طول غربة.

وإذا كانت أفكار السيد خاتمي المعروضة في هذه الصفحات تنم عن فهم عميق للإسلام فإنها تكشف عن قدرة فائقة في تبسيط هذا العمق ليصبح في متناول العامة كعامل قوة مرجّح للفوز بالسباق الحضاري.

(مركز فلسطين للدراسات والبحوث)

(*) محاضرة ألقيت في كلية الحقوق والعلوم السياسية والإدارية بالجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٩٦/١٢/٥.

توطئة

التراث والحداثة، والتنمية، مصطلحات ثلاثة، تَدَبُّرُ دلالاتها والتأمل في ترابطها بعضها ببعض همٌّ أوّل من هموم هذا العصر في البلدان غير الغربية بخاصّة.

قد نُقنع أنفسنا بتشخيص أوّليٍّ ـ سطحيٍّ بطبيعة الحال ـ لتلك المفاهيم فنقول إنَّ الحداثة (Modernity) كموضوع غربي قد شقّت طريقها باختراق التراث أو التقليد (Tradition) ومحاربته، وإنَّ التنمية، كحصيلة للحداثة أو كرديف لها، بمثابة هدف استراتيجي للبلدان التي تقع خارج دائرة النظام الفكري والحياتي الغربي. ومن هذه المُقَدّمات الأوليّة يمكن استنتاج النتيجة السطحية التالية: علينا الالتزام بالحداثة لكي نحقّق التنمية، والحداثة لا تتحقّق إلا بمحاربة التقليد والتراث.

ولكن هذا التشخيص، وما يترتّب عليه من استنتاج، لا يعدو كونه كتلة من التوهّم بعيدةً عن الواقع، ولا يسعها إلا إرضاء أهل الأفكار القاصرة والعاجزة وغير المسؤولة تجاه الإنسان ومصيره، وذلك لأنَّ المسألة أعقد من أن تُحَلَّ بهذا اليسر الساذج. فلا التّقليد يُغَيّره التمنّي والأحكام الواهمة، ولا الحداثة تتحقق بسهولة. فما لم يتغير الأفراد فلن يطرأ على حياتهم الاجتماعية أيُّ تحوّل مصيري، لأنَّ التغيير عملية شائكة جداً، ويبدو أن كل عناصرها ليست طوع إرادة الإنسان.

ولئن استطاع بحثنا هذا شَقَّ كوّة، ولو صغيرة، تنفتح على الأفق المنير نكون أدّينا بعض ما علينا.

في المصطلح والمفهوم

إن المصطلحات، مِنْ قبيل التّراث والحداثة والتنمية، مصطلحات غامضة ومعقدة ولا تُعرّف تعريفاً محدداً ومُتّفقاً عليه. ناهيك بأن هذا الغموض الناتج عن

فهم متباين وعن مقدمات فكرية مختلفة واهتمامات لدى الباحثين متباينة، والناتج، على مستوى آخر، عن اختلاف آفاق الرؤية التي ينحو إليها كل بحث ـ هذا الغموض قد غدا مصدراً لسوء فهم كبير أيضاً. من ثم فإن على الباحث في هذا الموضوع أن يعمل أول الأمر على الخروج من دائرة «سوء الفهم» التي تسبح فيها هذه المصطلحات، وذلك من خلال إيضاح فهمه لها. ولذا سأحاول جلاء مبادئ فهمي لموضوع البحث كخطوة أولى.

ماذا أفهم من الحداثة والتراث؟

لا ريب في أننا نعني، عند الكلام عن الحداثة، ظاهرة أو منظومة من الظواهر الجديدة. ولكن، هل يُمكن اعتبار كل ظاهرة جديدة في حياة الإنسان حداثة؟ أم أن الحداثة سِمَة معينة لعصر أو لفترة تاريخية ما؟

المجتمع البشري ـ حتّى في أبسط صوره ـ عرضة دائماً للتحوّل والتغيّر. فالظواهر الجديدة تحلّ محلّ الظواهر القديمة في نظام حياة الإنسان. والفارق الجوهريّ بين العالم القديم والعالم الجديد ليس في الثبات المطلق للأوّل والتغيّر المطلق للثاني، بل في بطء حركة التغيّر الأوّل وجموح سرعتها في الثاني. على أنّنا لا نطلق وصف «حداثة» على كلّ تحوّل أو ظاهرة جديدة تبرز في المجتمع، وإن تكن أساسية وباهرة.

وفي تصوّري أنّ الحداثة لفظ يُراد به التّحوّلات الّتي جرت في الغرب في العصر الأخير من تاريخ الإنسان، وبالتالي يمكن القول، بتعبير أدقّ، إنّ الحداثة روح الحضارة الجديدة والثقافة المنسجمة معها. وبصرف النظر عن البحث الشائك فيما بين الحضارة والثقافة من علاقة، باعتبارهما وَجْهَين لحقيقة واحدة أو أمرين يرتبط واحدهما بالآخر، فمن المُسَلَّم به أنّ كلّ ثقافة تنسجم مع حضارة معيّنة. ونحن نعلم أنّ الحضارة الحديثة قد قامت على أنقاض الحضارة الّتي سبقتها، ومن الطبيعيّ أن تُزَوَّج لثقافة تنسجم معها. وفي العصر الحديث ظهرت ثقافة جديدة تتّسِق والحضارة الجديدة فَحَلَّت محلّ الثقافة السابقة، والحداثة هي روح هذه الحضارة وهذه الثقافة.

ماذا الآن عن التراث أو التقليد؟

التراث، في الإجمال، أمر يتعامل مع الماضي أو القديم. بيد أنّه لا يَصِحّ نعت كلّ قديم بأنّه تراث. ففي المُصْطَلَح دلالة على السُّنَنِ الإلهية والطبيعية ونظائرها. والذي يؤمن بالسُّنَّة الإلهية أو الطبيعية يعتبرها ثابتة، وعليه فإن هذه السُّنَن تحكي، بحدّ ذاتها، عن أمور ثابتة كلّما وُجِدَتْ وُجِدَتِ السُّنَّةُ أيضاً. والقوانين الّتي تحكم الوجود هي سُنّة إلهية أو طبيعية.

ومن المُمْكن أن يُخطئ الإنسان في اكتشاف هذه النّواميس، ويدرك ذلك الخطأ فيما بعد. وهذا يعني أنّ الّذي يتغيّر هنا ليس أصل القانون بل فهم الإنسان وتصوّره له. فنحن، وإن آمنّا بمبدأ التغيّر وعدم الثبات في طبيعة العالم، كما آمن صدر المتألّهين الشيرازي، وهو أحد كبار فلاسفة الإسلام، الّذي قال بـ «الحركة الجوهرية»، أو اعتقدنا اعتقاد الماركسية الّتي ترى أنّ العالم يحمل في ذاته تضاداً، فتكون، بالطبع، الحركة والتحوّل صفة ذاتية ودائمة للعالم، إلاّ أنّنا نتّفق جميعنا على أنّ مبدأ التغيّر سنّة ثابتة غير متغيرّة.

ولكن، ما من شكّ في أنّ المُراد بالتقاليد أو التراث، في مقابل التَّجديد أو الحداثة، ليس كلّ أمر قديم. فالنّاس قد أذعنوا عملياً لِسلْسِلَةٍ من الأمور الثابتة القديمة في جوانب من حياتهم، دون أن يتّهمهم أحدٌ بالتقليد أو بالماضوية.

فما المقصود إذاً بالتراث أو التقليد؟

التّقليد، في تصوّري، شأنٌ إنسانيٌّ له علاقة بفهم الإنسان الفكري والعاطفي، وبتعبير آخر: إنه عبارة عن الضابط والسُّلوك المتعارف عليه في المجتمع والمتّصل بالماضي. والتّقليد، وفق هذا المعنى، يَتّفقُ والسّنخِية(*) ويُعَدُّ في أحيان كثيرة مظهراً لها. بَيْدَ أنّنا لا يمكن أن نَصِفَ كلّ ثقافة بأنّها تقليد أو بأنّها تقليدية. فالتّقليد هو عبارة عن الثقافة الموجودة في مجتمع امتلك ذات يوم حضارة، ثمّ بادت تلك الحضارة وبقيت ثقافتها، أو آثارها البارزة على الأقلّ.

والّذي أعنيه بالحضارة ليس بالضرورة صورتها المعقّدة أو الراقية أو المتطوّرة، بل النمط الخاصّ للمعيشة(**) بالمعنى العامّ للكلمة. وهذا النمط هو حصيلة إيجاد

(*) بمعنى التجانس أو التشابه.

(**) المعيشة بمعنى «أشكال تنظيم الحياة البشرية» في مصطلح علماء الإنسانية.

علاقة خاصّة مع الوجود، ويتجلّى في الإجابة على التّساؤلات، وفي تلبية الحاجات التي تظهر إلى الوجود بوحي من هذه العلاقة. وبناء على هذا المعنى فإنّ للبدو أيضاً حضارة من نوع ما، كما كان الإنسان منذ أنْ عاش بصورة جماعية، والظاهر أنّه قد عاش كذلك دائماً، وكان يتمتّع بصورة من صور الحضارة أيضاً.

أن حضور ثقافة الماضي في العصر الحاضر، في وقت اضمحلّت فيه الحضارة الّتي هي أساس الثقافة وتوأمها والملازمة لها، أمر ممكن، ذلك أنّ جذور الثقافة تمتدّ في أعماق الناس. ومن الطبيعي أن تكون أكثر دواماً من الحضارة نفسها ومن معالم الحياة العملية، ومن الأنظمة الاجتماعية، ومن نمط تعامل الإنسان مع العالم والآخرين، فكَمْ من المعالم الثقافية تستمر لقرون في نفوس أبناء حضارة بادت معالمها المادّية. وبتعبير آخر: التقليد هو تجلّي ثقافة الأمس وتجسّدها في حياة اليوم في وقت تحولت فيه تلك الحضارة وتبدّلت.

فإذا ما ظهرت الحضارة الجديدة وترسّخت الثقافة المنسجمة معها، فإنّ أولئك الذين كانوا في يوم ما أصحاب حضارة أخرى تلاشت الآن أو آلت إلى الانحطاط، تبقى في أعماق أرواحهم بقايا الثقافة المنسجمة معها أو بقايا معالمها الثقافية البارزة. إنّ أمّة كهذه، تقف في مهبّ حضارة وثقافة جديدتين، تُبْتَلَى حُكْماً بالتناقض والتضادّ، وذلك لأنّ واقع الحياة فيها يتأثّر بمتطلّبات الحضارة الجديدة ومعطياتها من جهة ومن جهة أخرى لأنّ الأرواح والنفوس تظلّ متمسّكة بتصوّرات وقيم هي، للوهلة الأولى على الأقلّ، على طرف نقيض من القيم والتصوّرات المنسجمة مع الحضارة الجديدة.

إنّه تناقض وتضادّ ابتُلِيَتْ به، مثلنا، شعوبٌ أخرى. نخلص من هذا إلى أنّ أزمة مجتمعاتنا الرئيسة، الروحية والاجتماعية على حدّ سواء والّتي تتباين جوهرياً مع أزمة الحياة الغربية، إنّما نتجت عن هذا التضادّ وما لم يرتفع هذا التضادّ فلن نخرج من أزمتنا تلك.

المجتمع الغربي والحضارة الحديثة

لقد بدأ المجتمع الغربي حضارته الحديثة باختراق التّراث ورفضه، وهذا يعني

أن بداية الحضارة الحديثة كانت منذ أن وضعت تقاليد الكنيسة الفكرية ـ الأخلاقية، وتقاليد النظام الإقطاعي الاجتماعية ـ الاقتصادية موضع الشكّ ثمّ النّفي والإنكار. وعلى ضوء ذلك برزت معضلة كانت الحضارة الحديثة وقادتها الفكريّون والمعنويّون فرسان ميدانها. ومن ثمّ ترسّخت الحضارة الحديثة اليوم في موطن ظهورها، في الغرب، مع أنّه يمكن القول إنّ مركزيتها امتدّت من أوروبا إلى أميركا، إن لم نقل إنها انتقلت إليها بالكلّية، وتجاوزت ذلك لتستوي، بنحو ما، على مختلف أنحاء العالم، حتى إنّ بلاداً كبلادنا وقعت تحت تأثيرها إلى حدّ بعيد.

غير أنّ ثقافتنا، من جهة أخرى، لم تَبْقَ على الصورة التي كانت عليها في السابق وذلك بسبب مِنْ بُعْدِهـا الضارب في الزمان، وبنتيجة أثر الثقافة والحضارة الغربيتين السائدتين في العالم. إلا أنّ نفوسنا جميعاً، على أيّة حال، لم تخْلُ من تأثيرها الجادّ، أو من تأثير جانب كبير منها، وهي، ومهما كان أمرها تتباين بل قد تتقاطع مع الثقافة الغربية السائدة.

وبتعبير آخر، أقول بأنّنا كنّا نمتلك تراثاً كان توأم حضارة أخرى وقريناً لها، وهي حضارة لم تعد موجودة الآن، وأنّ حضارة أخرى سائدة امتدّت إلى أبعد من حدود موطنها وتدّعي الشمولية أيضاً، قد تركت في حياتنا آثاراً قويّة.

وكمـا نعلـم جميعاً، فالحضارة الحديثة قد قامت على أنقاض حضارة القرون الوسطى وثقافتها، وأما التناقضات التي تُولِّد الأزمة التي تعاني منها مجتمعات كثيرة، فهي نتيجة الصراع القائم بين الحضارة الجديدة وثقافتها مع التقاليد، والتي هي امتداد للثقافة السابقة في عصرنا الحاضر.

وقد يُخَيَّل للبعض أن الحضارة الحديثة وحدها كانت تضادّ حضارة القرون الوسطى وثقافتها في الغرب، ولكننا كنّا نحن أصحاب ثقافة وحضارة تباينتا مع حضارة الغربيين وثقافتهم في القرون الوسطى، مما يعني أن عدم انسجام الحضارة الحديثة وثقافتها مع حضارة القرون الوسطى وثقافتها لا يعني بالضرورة عدم انسجامها مع ثقافتنا الماضية، ولتأكيد ادّعائي هذا أشير إلى جوانب من التمايز بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية، وإلى التباين الحقيقي بين حضارتي الثقافتين، إلا أننا، وللإنصاف، نقول بأن هذا لا يعني البتّة انسجام واتّساق ثقافتنا مع الثقافة

الحديثة، بل إن السّنخية والاشتراك الماهيّ بين ثقافة الغرب القروسطية وثقافة العالم الإسلامي يمكن اعتبارهما، على نحوٍ ما، نوعَيْ جنسٍ واحدٍ، إن لم نقل إنهما صِنْفا نوعٍ واحد، في حين أن الاختلاف والتباين بين ثقافتنا الحالية التي تضرب جذورها في الماضي والثقافة المنسجمة مع الحضارة الحديثة التي تسود حياتنا، إنما هو اختلاف جوهري في جنس الحضارات.

إن أبرز وجوه الشبه بين ثقافتنا وتقاليدنا الثقافية وبين تقاليد القرون الوسطى وثقافتها التي حاربها الغرب، وكان من نتيجة حربه عليها ظهور الحضارة الحديثة وانتشارها - هي في محورية الله في فكر الإنسان واعتقاده وفي نظامه الفكري والأخلاقي والعاطفي آنذاك، وأبرز وجوه الاختلاف بين ثقافتنا وتقاليدنا الثقافية وبين ثقافة الغرب وحضاراته الحديثة هي في تبوُّؤ الإنسان سدّة المحورية.

والإنسان نفسه، في نظر مؤسسي الفلسفة والفكر الحديثين الكبار الذين ظهروا في مطلع العصر الحديث وأيّدوا مبدأ فكرة الإله وما بعد الطبيعة أيضاً من أمثال ديكارت - هذا الأنسان يختلف في ماهيته عن الأنسان الذي كان محور اهتمام مسيحيي ومسلمي القرون الوسطى، كما يختلف أيضاً دور هذا الأنسان ومركزيته في نظام الوجود، على الأقل في عالم الطبيعة، عن ذلك الذي كان محور اهتمام السابقين.

وُجِدت الأفكار الغيبية والإلهية والعرفانية والدينية في الغرب وما تزال موجودة، كما وُجِدت الأفكار الإلحادية والدهرية أحياناً في القرون الوسطى وفي العالم الإسلامي بخاصة. بَيْدَ أن كلامنا الآن ليس في أصل وجود الأفكار والمعتقدات، بل في الآثار المترتبة عليها وعمق تأثيرها وَسَعة انتشارها في المجتمع ودورها في حياة الإنسان الاجتماعية. ومما لا شك فيه هو أن الإله والدين قد شكلا محور العقل والحياة في القرون الوسطى، وكان المسلم والمسيحي متساويين في ذلك، في حين أن فكرة الآخرة في العالم المتمدن المعاصر لم تعد حيوية إن لم نقل بأنها قد فقدت اعتبارها تماماً، واقتصر اهتمام إنسان اليوم على الحياة في هذا العالم وفي هذه الدنيا.

ومع أن العصر الجديد بات يفتقر اليوم إلى قوة العلوم التجريبية، وما تُبَشّر به

من آمال بالصورة التي كان أسلاف الغربيين في القرن الثامن عشر يؤمنون بها ويعقدون عليها آمالهم، إلا أن العلم (Science) والتكنولوجيا - وهي وليدة العلم - ما برحا من أهم العناصر التي تقود الحياة. وإنسان هذا العصر لا يحتاج، لتعيين موقفه في المجالات الاجتماعية، إلى أي مصدر أو مرجع خارج حدود الفكر والحس البشري، وخارج خبراته التجريبية، في حين أن نظرة الإنسان العالم إلى الوجود، وفهمه للعلم في الماضي يتباينان إلى حد كبير مع ما نراه اليوم، وذلك لأن ملاك تقدير العلم وشرفه لم يكن المنفعة التي تتحقق منه في هذا العالم على الإطلاق بل كان ملاك قيمة العلم والمعرفة عند القدماء شرف موضوعهما، وبالتالي فإن علوم ما وراء الطبيعة، وبخاصة معرفة الله، كانت تُعتبر من العلوم السامية.

وفي مجال الحياة الاجتماعية، أو على الأقل في جانب هام منها، كان الادعاء بأن الشريعة أو تصور ظواهر المصادر الدينية هو الحاكم، وكان الإنسان يرى نفسه مكتفياً بـ «الوحي» دون أي مصدر أو مرجع آخر للمعرفة واكتساب التكليف، أو يرى المصادر الأخرى تابعة للوحي.

الجدير بالذكر أن الفلسفة التي سادت العالم الإسلامي كانت الفلسفة التي تدور حول العقل الأرسطي - الأفلاطوني الجديد(*)، ولكن هذه النظرة الفلسفية، وإن كانت متباينة في الجوهر مع الفلسفة الحديثة وعقلانية القائلين بالحداثة، فإنها ظلت مُهَمَّشة ومنزوية أيضاً في مقابل التيارين القويين: تيار التمسك بالشريعة في أوساط أصحاب السلطة وعامة الناس، وتيار التَّصوُّف في أوساط الكثير من النخبويين.

يمكن التأريخ لبداية الحضارة الحديثة، بعبارة أخرى، وبشيء من التسامح، باليوم الذي صار فيه الملاك المهم، بل الأهم، لتثمين قيمة العلم هو الفائدة التي يقدمها في هذه الحياة، في حين كان جوهر الرؤية والقيمة في الحضارات السالفة، المسيحية والإسلامية، هو تحقير الدنيا. ولئن تعامل المسلمون مع الدنيا بِسَعَةِ صدر أكبر من نُظرائهم المسيحيين، فإنهم جميعاً كانوا يرون في الإقبال على الحياة

(*) أي فلاسفة الجوزة الإسكندرانية وعلى رأسهم أفلاطون.

الدنيا وجعل ذلك غاية وهدفاً، أمراً مذموماً.

نحن الآن إذاً، أمام أمور أربعة تواجهنا:

أولاً: الحضارة المعاصرة تسيطر وتستبد بحياتنا نحن أيضاً، أعني غير الغربيين أيضاً.

ثانياً: هذه الحضارة تتطلب ثقافة تنسجم معها.

ثالثاً: إن حياتنا الواقعة تحت تأثير الحضارة المعاصرة مشوبة بثقافة تقليدية تنسجم مع حضارة لم تَعُد موجودة اليوم.

رابعاً: لقد تبلورت الحضارة بتجاوز الحضارة السابقة والثقافة المنسجمة معها.

بناءً على هذا كله، لابد لنا من القول بأن تعارض الحضارة الحديثة وثقافتها مع ثقافتنا التقليدية يُعَدُ من أهم أسباب الأزمة التي نعيشها في عقولنا وحياتنا.

ثلاثة تيارات فكرية

والسؤال الذي يطرح نفسه علينا الآن هو: ما الذي ينبغي فعله في هذا المعترك؟ أنُصِرُ على التشبث بالتراث؟ أم ننجرف مع الحضارة الغربية وثقافتها حتى نذوب فيها بالكليّة؟ أم أنه من الممكن إزالة التعارض والتناقض بطريقة أخرى؟ أو لنقل، على الأقل، التحكم به وتوجيهه على نحو لا يؤدي إلى تدمير حياتنا الاجتماعية ومصادرة هويتنا الثقافية؟

هذا السؤال، وإن لم يطرحه، برأيي، أصحاب الرأي في المجتمعات غير الغربية، (الأمر الذي يعني أن من غير الممكن توقع الحصول على إجابة مدروسة وقادرة على إيجاد حل للأزمة بكل أبعادها)، هذا السؤال كان مستحوذاً على عقول هؤلاء ونفوسهم دائماً. وتبعاً للإجابة التي قدموها، برزت في العالم غير الغربي تيارات مختلفة أبرزها ثلاثة: التيار المتشبث بالتراث، والتيار المتغرّب، والتيار الإصلاحي. ولقد ضم كل واحد من هذه التيارات كماً هائلاً من الآراء والأذواق، ولكن وعلى رغم الاختلافات الطبيعية التي تتّسِق مع اختلاف البيئة الاجتماعية والجغرافية، فإن التيارات الثلاثة تمتلك عناصر مشتركة تستحق الدرس والتأمل.

أ ـ التقليديون:

لم يكن التقليديون قلّة، ولا هم الآن كذلك. وأعني بالتقليديين أولئك الذين أصروا دائماً على التمسك بالتراث بكل أبعاده ووجوهه، أو لنقل، بتعبير آخر، أصروا على تقليدهم وتصورهم الذهني وسلوكهم الذي اعتادوه، وكان بالنسبة لهم أمراً مقدساً في مقابل التجديد أو الحداثة، واعتقدوا أن بالإمكان العيش في إطار التقليد الضيق الموروث عمّن سلفهم بإيصاد الأبواب في وجه أمواج الحضارة الغربية وثقافتها المندفعة.

ولكن إصرارهم الخائب هذا لم يُعْطِهِم ما كانوا يرجونه من نتيجة، فلقد تمكنت الحضارة الغربية من بسط نفوذها التاريخي ـ الجغرافي، (على الأقل في الكثير من مظاهرها وظواهرها)، على المجتمع التقليدي من دون أن يحاول المجتمع التقليدي تأمُّلَ، بَلْه تَدَبُّرَ، طريقة التعامل مع الظاهرة الجديدة، ومن ثمّ اضطر سَدَنَة التراث إلى التراجع أولاً بأولٍ من دون أن يكون المجتمع مهيأ لقبول الحضارة الغربية على وجه مدروس، وبالتالي فلقد وجد المجتمع التقليدي نفسه في ورطة مضاعفة.

ب ـ الحداثويون:

من جهة أخرى كان هناك مَنْ خُيِّل إليه أن الأزمة قابلة للحل من خلال قبول الحضارة الغربية بجميع أبعادها ومتطلباتها ومستلزماتها، بما في ذلك ثقافة الحداثة، فالحداثة في نظر مفكري هذه الفئة أبرز مراحل تكامل حياة البشرية وتاريخها، وبقبولها تتحقق السعادة ويتحقق التقدم والتحرر، وبالتالي لابد من تمهيد الطريق لقدومها واستقرارها والعمل على إزالة العقبات التي تعترضها. وفي هذا السياق اعتقدوا أن التراث عقبة كأداء في طريق الحداثة، وعليه فلابد، استعداداً لقدوم الضيف القادم، من محاربة التراث والقضاء عليه.

المؤسف أن الكثير من السطحيين، الذين بهرهم الكمّ الهائل من الإنجازات الظاهرة والمدهشة بالطبع التي قدمها الغرب، قد آمنوا بذلك. وفي الحقيقة فإن ما ظهر في مجتمعاتنا تحت عنوان التنوير الفكري أو الوعي الثقافي كان في أغلب الأحيان وليد هذا التصور. بَيْدَ أن حصيلة فكر وسلوك هذه الفئة لم تحل معضلة

من معضلات المجتمعات المستعصية على الحل، بل زادت من مشقة العمل ووعورة الطريق.

لماذا؟

أولاً: لأن نظرة هؤلاء السطحية والمُتّكِلَة على الظاهر قد سدَت المنافذ في وجه التأمل والتمعن في أساس الحضارة الغربية وثقافتها، كما أعاقت التصورات الواهمة الوعي السليم بالعلاقة القائمة بين التراث والحداثة.

وثانياً، لأن هؤلاء، بتحقيرهم التراث واستهزائهم به بدلاً من تحليله ونقده، تجاهلوا نفوذه الراسخ والمتأصل في أوساط الناس في احسن الأحوال، وعجزوا عملياً عن أداء دور يُذكر أمام الواقع الماثل في المجتمع، ولم يتمكنوا، في أي وقت، من الحصول على موطئ قدم في مجتمع يَحيي التراث ويأنس به، وفشلوا في العثور على لغة مشتركة للأحاسيس والمشاعر فمكثوا في عُزلة موجعة، دون أن يكون لخطابهم في المجتمع أي أثر يُذكر بل - وهو الأسوأ - تعلّقوا بدافع المحافظة على بقائهم بأذيال الحكومات المُستَبدّة، أو أمسَوا، عملياً وعن وعي في الكثير من المواقف، مُنَفّذين لتطلعات الغرب الاستعمارية في بلدانهم.

إجابتان، مهما يكن الباعث لطرحهما وبملاحظة غربتهما عن الواقع، لم يكن لهما أثر يُذكر عملياً، اللهم إلا زيادة القلق والاضطراب أكثر في العقول وتشديد الأزمة وإحكام سدّ الطريق.

ففي عالم الواقع، ليس للفتاوى ولا للأحلام الوردية الحؤول دون تغلغل الحضارة الغربية وثقافتها إلى المجتمع ونفاذها في ثناياه، كما أن الخُطب والمنشورات لا تقدر على عزل التراث وفصله عن المجتمع. فحياة الإنسان عرضة للتغير والتحول دائماً، ناهيك بأن عناصر التغير والتحول ليست كلها طوع إرادة الإنسان. وعليه فالمهم هو معرفة بأي فهم وتدبير نتمكن من الحضور الفاعل والواعي في عملية التغيير والتعامل بيقظة ووعي معها، بدلاً من الاستسلام والتسليم الأعمى لها؟

ج - الإصلاحيون:

إلى جانب هاتين الإجابتين - الأسلوبين كانت هناك إجابة أخرى قال بها

بعض المفكرين الخبراء الذين يعيشون هاجس التفكير بمصير شعوبهم، وتلك الإجابة يمكن إدراجها، على رغم الاختلاف الموجود بين آراء القائلين بها، تحت عنوان الحركة الإصلاحية أو المذهب الإصلاحي.

ورغم أن آمالاً كبيرة بمستقبل أفضل تُعْقَد على التيار الإصلاحي الذي تمتد سابقته التاريخية في بلداننا إلى ما يزيد على قرن كامل، فإن هذا التيار قد اُبْتُلِيَ في الحقيقة، وفي أغلب الأحيان، بالتيه والاضطراب أيضاً بسبب الأزمة العميقة والواسعة التي عصفت بحياتنا الفكرية والاجتماعية.

ينطلق الإصلاحيون في عملهم من مبدأين:

الأول: هو «العودة إلى الذات» وإحياء الهوية الثقافية ـ التاريخية لأمّتهم وشعبهم.

الثاني: يقول بـ «التعامل الإيجابي مع معطيات التمدن البشري» وفي الوقت ذاته اتخاذ الحيطة والحذر، في مقابل نزعة الغرب التوسعية وتوجهه الاستعماري.

بيد أن تيارات الإصلاح المختلفة هذه تفتقر إلى وحدة الرأي بشأن «الذات» التي ينبغي العودة إليها، كما تفتقر إلى تحديد أبعاد الحياة الغربية التي لابد لنا من اقتباسها وهضمها، وهذا فضلاً عن توتر الكثير من الآراء المتنوعة، بل والمتضادة أحياناً، فيما يخص التوجه الإصلاحي الواسع. ناهيك بما اتَّسَمَت به أفكار هذه الآراء من اضطراب وسطحية ووَهَم.

ولكن، وعلى رغم هذا كله، فإن جهود الإصلاحيين ستظل أهلاً للتقدير، باعتبار أن أصحابها كانوا طليعة واعية وقادة أدركوا مكامن الألم. فَهُم، وبإدراكهم أزمة مجتمعاتهم وموقعها الخطير، أبدوا شجاعة وتفانياً في رسم معالم الانطلاق على طريق التحرر من التعاسة والضعة، وخَطَوْا، ما وسعهم، الخطوات الأولى على هذا الطريق الوعر والمليء بالمخاطر. إن عظمة هؤلاء المصلحين لتبدو جلية وأكثر وضوحاً، خصوصاً حين تُقَارَن بأسلوب عمل التقليديين المعادين للغرب والمتغرّبين الرافضين له.

وإذا كان أسلوب عمل هؤلاء يفترض ضمناً، وعلى غفلة من أصحابه، ألاّ

يتيسّر خارج التفكير والتأمل في المبادئ النظرية والمعرفية والمباني الوجودية والأخلاقية للحضارة الغربية، فكيف تكون الحال إذا ما أريد اتخاذ القرار بشأن الاستفادة منها أو رفضها؟

التنمية: بحث في الأصول والأسس

برأيي إن البحث بشأن التنمية قبل محاولة التعرف على أصولها وأسسها يقود إلى التيه والضياع.

هناك مَنْ يزعم أن الشعوب محكومة بالتخلف والتعاسة، وبالتالي بالفناء، إلا إذا قبلت بالتنمية وانصاعت لجميع متطلباتها. وبما أن التنمية هي حصيلة الحداثة، فليس أمامنا طريق آخر يؤدي إلى النجاح والسعادة غير اعتناق الحداثة والتحضر بالحضارة الحديثة.

إن حكماً كهذا يَصِحُّ إذا ما اعتبرنا أن الحضارة الغربية التي هي موطن التنمية هي آخر (نهاية) الحضارات البشرية، فحينئذ سنقول بأن ليس أمام الإنسان من سبيل غير الاستسلام أمام مرحلة من مراحل تكامل الحياة الاجتماعية.

بيد أن الذين ينظرون إلى الحياة الغربية على أنها الحضارة الأخيرة وليست آخر الحضارات، ويعتبرونها أمراً نسبياً ومحدوداً وقابلاً للزوال كأي شأن بشري آخر، لا يقنعهم هـذا الحكم البتة. على أن رفضه لا يعني التسليم للتقليديين والرجعيين، ورفض جميع شؤون التنمية وموازينها، بل يؤكد رفض آراء أولئك الذين ينادون بحتمية الاستسلام أمام أمواج التنمية بمعناها الغربي. ولكن، ومهما يكن وجه الأمر، فإن موضوع التنمية أبرز ما يهم مفكري ومسؤولي المجتمعات التي نعيش فيها.

ومما يذكر في هذا المجال أن مهمة المفكرين والمثقفين الواعين تتباين مع ما يفكّر به السياسيون والمسؤولون عن إدارة المجتمعات، على رغم أن الإصلاح لا يتحقق إلا إذا اتبعت السياسةُ والنشاطُ السياسيُّ الفكرَ والحكمة، ولم يُبقيا نطاقاً مفروضاً على الأفكار.

إن ما يهمنا، نحن الذين نحيا في عالم الفكر والرأي، هو الحذر من الاستسلام

للأمواج المطالبة بالتنمية، دونما سؤال عن مبادئ الحضارة الحديثة ومبانيها، والتي هي موطن التنمية وقاعدتها، ومن غير التأمل في روح هذه الحضارة، أي الحداثة، حتى ولو لم يكن ثمة مفر من القبول بالتنمية على الصورة التي اختُبِرت بها في الغرب، فإن الاستفسار عن مبادئها ومعطياتها يبقى من أهم مسؤوليات المفكرين والمثقفين الصادقين. وفي الحقيقة فإن التنمية الواقعية المتأصلة لن تتحقق أصلاً بمعزل عن الفكر لسببين:

أولاً: ليست التنمية موضوعاً آلياً يأتي ويستقر من غير تدخل الإنسان.

ثانياً: المجتمع الذي يفتقر إلى الفكر المبدع يفقد هويته في أول مواجهة مع أية مشكلة، ولا يخفى أن المشكلة الإنسانية والاجتماعية لا تُحَلُّ بالقوة والقانون الجاف وقرارات السياسة، رغم إمكانية استتارها لبعض الوقت. باختصار: إن تحديد موقفنا النهائي من التنمية منوط بحسم موقفنا من الحضارة الحديثة وروحها، أي الحداثة التي تعدّ حتى الآن من أهم قضاياها. فنحن الذين نعيش معترك الصراع بين «التراث» الذي هو أساس شخصيتنا وهويتنا الثقافية والتاريخية وبين «الحداثة» الحَدَث التاريخي المهم وظاهرة العصر المقتدرة، نعيش وضعاً متأزماً جداً، نعيش أزمة ابتلعت حتى الكثير من المصلحين الباحثين عن حلّ لها.

إن تجربة المتغربين والتقليديين المرّة ماثلة أمامنا، والوعي والفطنة كل هذه تقتضي الحؤول دون تكرار تلك التجارب الباهظة، وتقضي بأخذ العبرة منها فقط في بحثنا عن سبيل أفضل.

الحضارة الحديثة، كما أسلفنا، هي الحدث المهم في العصر الأخير من التاريخ البشري الذي رافقته إنجازات إيجابية مدهشة لجميع بني الإنسان. بيد أن مساوئها ليست قليلة أيضاً، ولا تنحصر في جرائم الغربيين السياسية والاقتصادية خارج حدودهم الجغرافية، بل إن الغرب يُواجِهُ في داخله مشكلات عظيمة أيضاً كانت، في جميع الأوقات، تقريباً، سبباً من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية الكبيرة.

ولو لم نكن، نحن الشرقيين، يائسين منهزمين، لتمكنّا من الحكم على نحو أدق بكثير مما نفعل على ما تسببت به الحضارة الغربية الاستعمارية لغير الغربيين،

وتأسيساً على مبدأ الحرية وعلى أن الإنسان ليس أُلعوبة بيَدِ الحوادث بِيَدِهِ الخيار في كل الأوقات فماذا عسانا يكون خيارنا مقابل حضارة الغرب؟ من الواضح أن الاختيار السّليم هو الذي يرتكز إلى الوعي والحكم العقلاني. المهم هو أنْ نَصِلَ إلى مرحلة وعي الغرب وروحه، الحداثة، وعطيّته، التنمية، ونتوصل إلى حكم سليم ومنطقي.

الحضارة الغربية نتاج بشري قابل للنقد

الحضارة الغربية موضوع بشري هي أيضاً، وعليه فهي نسبية وممكنة الزوال، اللهم إلا أنْ يبالغ أحدٌ ما فيدّعي أن ينبوع تساؤلات الإنسان قد نضب وجفَّ مع طلوع شمس الحضارة الحديثة! أوليست الحضارة والعالم والإنسان استجابة يردّ بها الإنسان على تساؤلاته واحتياجاته المتنوّعة والمعقّدة؟ من الطبيعي أنّ ثمّة تساؤلات واحتياجات مهمة وتاريخية تنصب الإجابة عليها في عملية نشوء الحضارة، كما وأن هناك تساؤلات واحتياجات تولد في ظروف زمانية ومكانية وتاريخية خاصة تحمل في حناياها طبيعة الحال وملامح الزمان والمكان والتاريخ وتأثيره، ولهذا السبب تتبدّل الحضارات إذ لا توجد حضارة ثابتة وخالدة قطّ.

وعندي أن تساؤلات الإنسان واحتياجاته ستظل قائمة مادام الإنسان على قيد الحياة، وأن أي سؤال أو استفسار تتم الإجابة عليه، وأية حاجة يتم توفيرها يقودان الإنسان لمواجهة عشرات الأسئلة والاحتياجات الجديدة، وبالتالي فإن كمال حياة الإنسان هو حصيلة ثمرة روح الإنسان الشائكة والمعقدة.

إن أية حضارة تستطيع، مادامت قائمة، الإجابة على تساؤلات الإنسان وتلبية حاجاته من خلال الطاقة الذاتية الكامنة فيها، ولكن الحضارة، شأنها شأن أية ظاهرة إنسانية، أمرٌ يختص بهذا العالم، وإذا ما تَدَنَّت الحضارة وتناقصت قدراتها الذاتية وعجزت عن تقديم الإجابة الناجعة على الاستفسارات الجديدة، عندها يتلاشى الأمل بالتدريج لدى أتباعها، وهكذا تبلى الحضارات وتنحدر نحو الانحطاط والفناء.

لقد واجهت الحضارة الغربية، حتى الآن، أزمات عديدة، إلا أنها استطاعت

تجاوزها بالاعتماد على طاقاتها الذاتية. ومن أبرز هذه الأزمات الأزمة التي عصفت بها في القرن التاسع عشر، وامتدت إلى القرن العشرين بصورة ما، كما أسفرت هذه الأزمة عن وجهها الكريه في الحربين الكونيتين. بيد أن الرأسمالية والليبرالية الغربية استطاعت الصمود أمام خصمها العنيد «الاشتراكية» بعد إجرائهما تعديلاً في أسسهما ومرتكزاتهما. كما أضحى الضعف الذاتي والأصولي الذي كان يعاني منه خصمهما سبباً في انهياره أمام حيرة العالم ودهشته، ولكن وكما هو واضح فإن الحضارة الغربية تعاني من أزمات عميقة أخرى أيضاً. أزمات تبدو وليدة التساؤل عن جوهر الحضارة الغربية ومؤشراً على اضمحلال أو ضعف الثقة بقدرة هذه الحضارة على الاستمرار والخلود. وإذا ما وجدت هذه التساؤلات من قَبْل فهي بنحو أشمل وأكثر جدية.

على أية حال، أضحى الاعتراض اليوم على الأصول الفلسفية والأخلاقية والقيمية للحضارة الحديثة أوسع وأعمق بكثير مما كان عليه في السابق.

إن التمعن في تطلعات الحضارة الغربية، والعوامل الروحية والمادية المؤثرة في نشوئها وانتشارها، يساعدنا في الحكم على واقع هذه الحضارة ومستقبلها. صحيح أن كلاً من روح الإنسان الباحثة، وتساؤلات الإنسان المتجددة، وعجز حضارة القرون الوسطى وثقافتها عن الإجابة على تساؤلات الإنسان وإدراك احتياجاته المتجددة وتلبيتها، واللجوء إلى القهر والاضطهاد والضغوط الروحية والجسمية المهمة التي عملت على تبديل السؤال والحاجة إلى نوع من الانفجار الفكري والاجتماعي مما أدى إلى انهيار البناء القديم لحضارة القرون الوسطى الكنسية الإقطاعية، على صحة ما تقدمفإنه من السذاجة أن نتصور أن التساؤلات الناتجة عن تأملات الإنسان وروحه الباحثة كانت السبب الأول وراء قيام حضارة القرون الوسطى أو أن نعتبر الإجابات المنطقية التي عرضها المفكرون وأصحاب الرأي استجابة لتلك التساؤلات، العامل الوحيد وراء ظهور الحضارة الغربية أو أنها من أهم العوامل. فالحقيقة أن كلاً من هذه التساؤلات، أضاف المزيد إلى كمّ الاحتياجات والرغبة في توفيرها، وبفعل تأثير عوامل روحية واجتماعية عديدة وكذلك دوافع لم تكن بأجمعها عقلانية ومنطقية، كل ذلك كان من العوامل ال مؤثرة في إيجاد الحضارة ودوامها. ليس من شك البتة في مدى تأثير الأطروحات

التي قدمها المفكرون آنذاك رداً على التساؤلات وتلبية للاحتياجات في ظهور الحضارة الغربية الحديثة ولكن،

أولاً: إن هذه الأطروحات نفسها مبنية على عوامل ذهنية مختلفة وأحكام عاطفية مسبقة ودوافع نفسية متنوعة، كما أنها جاءت كرد فعل على ممارسات القرون الوسطى المتزمتة التي يمكن، بل يجب، التعرف على الكثير من أسبابها ودوافعها، من خلال نقيضها، أي تلك الأوضاع التي أدت إلى ردود الفعل هذه.

إن إفراط الكنيسة والنظام الفكري ـ العقائدي المغلق للقرون الوسطى، واللجوء إلى القوة لترسيخ النظرة الضيقة والتصور البشري عن الدين والكون، اللذين كانا قد اكتسبا صبغة مقدسة، كل ذلك أضحى سبباً في بروز ردود فعل متطرفة أعلنت رفضها للنهج والأسلوب غير السليمين، الذين كان يمارسهما القيّمون على الدين. ليس هذا فحسب بل لقد انتقل الكثير من الشكوك والإنكار ورفض الواقع إلى أركان الدين التي كانت تعتبر أساس الواقع وعين التصورات الرسمية والتقليدية عن الدين بفعل الإصرار الباطل لأرباب الكنيسة. وعلى نحو ما يمكن القول إن الدافع الذي كان وراء إقبال الحداثويين غير المنطقي على الدنيا وإدارة ظهورهم إلى المثال والقيمة كان وليد هذه الحالة النفسية المؤلمة.

ثانياً: من جانب آخر ينبغي علينا ألا نعتبر التأمل والعطش للمعرفة وحدهما السبب وراء ظهور الحضارة الحديثة وثقافتها، بل إن الكثير من الأطماع والآمال والتطلعات الدنيوية البحتة لعبت دوراً في نشوء الحضارة الحديثة أيضاً، إذ أن الكثير من الحقائق السامية والمعنوية الإنسانية أمسى، في ظل ذلك، موضوع تجاهل وإساءة أيضاً.

فهل كان دور القوة الفاعلة، (الطبقة البورجوازية)، وبتعبير آخر العناصر المؤثرة والفاعلة في الحضارة، في إيجاد هذه الحضارة وقيادتها دون دور المفكرين في مطلع المرحلة التاريخية الجديدة؟ هذا فضلاً عن أن الذي كان يدفع البرجوازيين ليس إيمانهم بالحق أو حرصهم على اكتشاف الحقيقة وتحريرها من سلطة الكنيسة والإقطاع واضطهادهما، بل كان اندفاعهم، في الغالب، من أجل تحقيق الآمال الوردية والحصول على أكبر حجم ممكن من مزايا الحياة المادية وأفضلها.

إن «الحرية» و«الإخاء» و«المساواة» التي كانت محل اهتمام الجماهير وانجذابهم إليها دائماً، مثّلت الشعار المركزي لأحد أبرز وأشهر مظاهر الحضارة الحديثة، أي الثورة الفرنسية الكبرى. بيد أن هذه الشعارات نفسها كانت في الواقع وسيلة بيد أبناء الطبقة الجديدة لمحاربة خصومهم من الإقطاعيين والنبلاء، وتحقيق تطلعاتهم وآمالهم وطموحاتهم حتى أنه يمكن القول إن العلماء والمفكرين كانوا في الحقيقة المسوّغ المنطقي والعقلاني لتطلعات الطبقة الجديدة وأحلامها في معظم الأحيان. ولا يخفى أنه، في ظل هذا المعترك الطبيعي، اتضح الكثير من الأمور الجديدة التي سخرتها وتسخرها البشرية لخدمتها، واستطاعت بفضلها أن تحقق، في الكثير من الأحيان، تقدماً كبيراً أيضاً. ولكن لا ينبغي أن نغفل، ونحن نتطلع إلى الحضارة الحديثة في مرآة العلم الحديث والتكنولوجية وآرائها في الحرية وتشكيلاتها، وحق سيادة الشعب، وإيكال السلطة السياسية إلى إرادة الشعب وإشرافه، ونظائر ذلك التي تعد من إنجازات تاريخ الإنسانية الذي يستحق التقدير ـ ينبغي أن لا نغفل الوجه الآخر لهذه الحضارة، أي الاستعمار والاضطهاد والقمع الدموي الذي مورس ويمارس بحق غير الغربيين، ونهب ذخائر الآخرين المادية والمعنوية، وتدمير البيئة وترويج الإعلام الكاذب والانتهازية، وكذلك أيضاً أُفُول بريق الكثير من القيم الإنسانية والمُثُل المعنوية والأخلاقية وغيابها عن واقع حياة إنسان اليوم الذي بهرته الدنيا.

إن كل هذا من نتاج حضارة الغربيين، وإنه لمن الخطأ والإجحاف أن لا يرى أولئك الذين يشغلهم هاجس التفكير بالحداثة وحصيلتها، التنمية، كل هذا جنباً إلى جنب.

وعي الغرب لا التسليم بهيمنته

بناءً عليه، فإذا ما قبلنا أن الإنسان يستطيع ـ تبعاً لوعيه وإرادته ـ أن يختار طريقة، بل أن يترك بصماته أحياناً لصالح الطريق الذي اختاره، تبعاً للظروف الاجتماعية والتاريخية، فسيكون من الطبيعي الاعتبار أن التسليم التام أمام هيمنة الغرب، ليس منطقياً ولا إنسانياً، كما أن الوقوف غير المنطقي في وجه الكثير من شؤون الحضارة أمر غير ممكن، وإذا ما حصل فهو غير عقلاني. فالخطوة الأولى هي

أن نعي الغرب ونتعرف عليه بصورة سليمة.

من جانب آخر، لا يمكن التعامل مع التراث بسخرية واستخفاف لأن التراث هو مَعينُ الهوية التاريخية والاجتماعية للأمم، خاصة الأمة التي لها حضارة متميزة وثقافة غنية. فالتراث تَجَلٍّ لثقافة المجتمع ولا مجتمع من دون ثقافة. وفي هذا المجال تستحق التأمل كلمة أرسطو التي وردت في كتابه السياسة، بالنسبة لدور العُرْف وضرورة الاهتمام به في مواصلة الحياة الجيدة للمجتمع والمدينة.

إن القضاء على التراث يعني مصادرة أساس الهوية التاريخية والثقافية لأية أمة والقضاء عليها. وإذا ما قُدِّر لأمة أن تتغير، فإنه ينبغي لها في البدء أن تستشعر وجودها وشخصيتها من خلال ارتكازها إلى هويتها التاريخية، لكي تتمكن من الانطلاق منها. وطبيعي أن يكون التقليد في بعض الأحيان حائلاً دون التغيير والتطور، ولذا فلا مفر من اختراقه. بيد أن الخروج على التقليد يكون مجدياً إذا كان مسبوقاً بالاتكاء على نوع من التقليد الذاتي كما رأينا في تاريخ العصر الحديث. ألم يستيقظ الغرب بفضل عودته إلى تراثه؟ إذ عاد المفكرون إلى التراث اليوناني الفكري والفني، وإلى تراث روما الاجتماعي، عصر النهضة؛ كما عاد المتدينون إلى ما كانوا يعتبرونه حقيقة دين المسيح والتراث المسيحي الحقيقي، عصر الإصلاح، وكانت هذه العودة ذاتها مصدر إلهام لعصر البناء والإعمار.

وكانت لهاتين الفئتين ـ المفكرين والمتدينين ـ حكاية واحدة في رفض التقاليد التي كانت سائدة في عصرهم، ولكن الظروف واتت، على نحو ما، البورجوازيين لتحقيق فوزهم بمساعدة المفكرين غير المتدينين، الذين لم يكونوا بالضرورة معادين للدين، فشيدوا بالتالي صرح الحضارة السامق في غياب الدين أو انزوائه، على هدي العقلانية الجديدة التي تأسست، بطبيعة الحال، في ظل العودة إلى العقلانية التاريخية. وعليه فلا مفر من الاتكاء على التراث حتى في الصراع معه.

نقد التراث لا القضاء عليه

نحن أيضاً، الذين عقدنا العزم على التغيير والتحول ونريد أن نغير عصرنا من خلال التحكم بمصيرنا، يجب أن نحذر التخلي عن تراثنا بذريعة الرغبة في

الحصول على التنمية الغربية، دون أن نحقق التنمية الحقيقية. وإذا كان نقد التراث وإعادة صياغته أمراً ضرورياً - وهو ضروري بالفعل - فإن الأمة القادرة على ذلك هي التي تمتلك هوية والأمة التي تفتقر إلى التراث ليست أكثر من جماعة غير واعية عديمة الفكر والإرادة يتقاذف حياتها طوفان الحوادث.

وفضلاً عن ذلك لا يمكن مصادرة التراث أو القضاء على أساسه بقرار يصدره أهل الفكر أو السياسة، لأنه أعمق بكثير ولا يُقضى عليه بهذه السهولة. ونظراً لتأصُّل التراث وتجذّره في أعماق روح المجتمع، فإن الصراع غير المدروس معه، من الممكن أن يقود إلى مُضاعفة المعضلات الاجتماعية.

لا يمكن القضاء إذاً على التقليد بسهولة، كما أنه لا ينبغي أن نُقْدِم على مثل هذا العمل الخطير دون دراسة. لابد من النظر إلى التراث باعتباره أحد الأسس الأصلية لهويتنا التاريخية، وعلينا أن لا نفرغ المجتمع من هويته بذريعة الحداثة.

ما ذكرناه لا يعني التسليم التام حيال التراث أبداً، لأن التراث أيضاً، كما هي الحضارة، شأن بشري قابل للتغيير. وإن آمنا بأبعاد ثابتة في مجال حياة الإنسان المعنوية والعقلية والإرادي، فإنه يجب القول بأن جانباً مهماً، إن لم نقل جميعه، مما نصطلح عليه بالتراث، هو نتاج بشري متأثر بالظروف الاجتماعية والتاريخية للمجتمعات، وبالتالي فهو عرضة للتغيير وليس مقدساً وخالداً.

إن تحول التقاليد المستمر، أحياناً بحركة متسارعة وأخرى بطيئة، على مر التاريخ، هو أكبر دليل على أنه لا مفر من التحول والتغيير. المهم هو كيف يتقبل الإنسان ذلك، وإلى أي حد هو مستعد للمساهمة في العملية طوعاً، لا أن تضطره الظروف إلى ذلك.

التراث يتغير بالضرورة، وإن استطاع أن يحافظ على بقائه على رغم ما تقتضيه وتتطلبه حياة الإنسان المتحولة، ولكن هل هذه المحافظة مطلوبة حقاً؟

التراث شأن بشري، وأي وجود يصنعه يجب أن لا يحد من وجود الإنسان غير المتناهي ذاتاً وبالقوة. إن الإبقاء على التقليد الذي انتهى عصره يعني فرض إطار ضيق على كيان الإنسان وروحه الذين يتسعان إلى مالا نهاية. وإذا ما تحقق مثل هذا، ليس على المدى البعيد، فإنه يعد خيانة بحق وجود الإنسان ويلحق ضرراً بروحه.

يُظْهِر الإنسان علاقة خاصة مع الوجود، وفي ظل هذه العلاقة تنشأ الحضارة. وما وعيُ الإنسان لهذه العلاقة إلا وليد الثقافة. وإذا ما واجهت الشؤون الثقافية، التي تجري بصورة طبيعية في الروح، وضعاً مختلفاً، يبرز التقليد، والتقليد يرتبط بوعي الإنسان وميوله بنحوٍ ما. وهذا الوعي والرغبة والفهم أمور طبيعية إلا أنها غير ثابتة، بيد أن هذا التغيير لا يتعارض مع أمور ثابتة في ساحة وجود الإنسان أيضاً. فهل كان وعي الإنسان واستيعابه للحقيقة المتسامية والمقدسة في درجة واحدة ومستوى ثابت على مرّ التاريخ؟ علماً أن الثقافة والتراث يتعاملان مع الوعي والفهم.

الملاحظة المهمة هي أنه إذا ما ظهر الوعي والفهم بصورة اعتيادية، وأَنِسَ بهما الناس، وأمسى هذا الاستئناس مصدراً أو مظهراً لذاكرة الأمة والمجتمع التاريخية، ففي هذه الحالة يُعد التخلي عنه أمراً شاقاً وصعباً، وتكون الصعوبة أكبر إذا ما اتخذت التقاليد صبغته ومظهره، أي إذا حلت التقاليد وحل فهم الإنسان المحدود محل الموضوعات المقدسة والمتسامية. في هذه الحالة سيعدّ أي نوع من الاعتراض على هذا الفهم والعرف، بدعةً وخروجاً على الدين، وعندها تُمسي محاربة المبتدع أمراً مقدّساً وسامياً، ولهذا تكون المشكلة الآنفة الذكر أعظم وأخطر في المجتمعات الدينية.

من المُسَلَّم به أن عقولنا وحياتنا تقتضي التغير والتحول، في الرؤية وفي العلاقات الاجتماعية. ولا شك في أن التقليد، في الكثير من الأحيان، يعد من العوائق الكبيرة التي تحول دون التحول. بيد أن رفض التقاليد بصورة عشوائية لا يمكن تحقيقه بسهولة، ولا هو مرغوب فيه إن وُجِدَ، لأنه يُفَرِّغُ المجتمع من الهوية التي يحتاج إليها في التغيير بقوة. أما النهج السليم فهو أن تكون لنا مساهمة واعية حذرة في عملية التغيير والتحول، وفي إعادة صياغة التراث باعتباره موضوعاً بشرياً.

خلاصة

سوف أحاول فيما يلي تلخيص البحث استخلاصاً لبعض الخلاصات:

إن مجتمعنا بحاجة إلى التحول والتكامل. ولكن علينا أن نعلم أن التنمية، بمعناها الغربي، ليست أكثر من منهج في التحول، ناهيك بأنها ليست المنهج الوحيد، فهي محصلة بروز وشيوع هوية جديدة في الغرب وَفّرت للغربي أرضية فهم جديد للوجود وللإنسان، استناداً إلى التراث والتذكير بالماضي التاريخي.

لقد توصل الغرب في البدء إلى مرحلة من امتلاك الرأي والعزم، عبر عملية شاقة وطويلة، وباجتيازه لطوفان من الصراعات الأزمات، ثم التقت عناصر الفكر والمشاعر والبحث عن الحقيقة والمنافسة والرغبة والأحقاد والأحلام الوردية، تضافرت معاً لتعطي الحداثة والتنمية.

ونحن اليوم نحيا في عصر اتضحت فيه، أكثر من أي وقت مضى، نقاط ضعف الحضارة الحديثة وروحها، الحداثة، ليس خارج العالم الغربي فحسب، بل داخل الغرب أيضاً. نحن نحيا في عصر شكك الحداثويون أيضاً في شمولية الحضارة الغربية وقدرتها على تحقيق النهاية المرجوة، والأخذ بالبشرية إلى بر الأمان.

إن وعي هذا الأمر يقودنا إلى الامتناع عن التسليم الأعمى لمعايير التنمية الغربية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يحول في الوقت ذاته دون اعتبار التراث أمراً مقدساً لا يحتمل التغيير.

وعليه، فنحن نقف في مواجهة شأنين بشريين أحدهما متأصل في أعماق الروح والمجتمع، والآخر ورد من الخارج ونفذ إلى حياتنا، إنهما التراث والحضارة الحديثة. الشيء المهم هو أن ننظر إلى هذين الشأنين البشريين على أنهما شأن بشري وليسا حقيقة مطلقة، وغاية نهائية منشودة، كما ابتُلي بذلك كثير من التقليديين المتحجّرين والمتظاهرين بالحداثة السطحيين.

إذاً، ما الذي ينبغي علينا فعله؟

اسمحوا لي بالتحليق قليلاً في الخيال، ولكن للبحث عن سبيل إلى الواقع. فعلى رغم أن الخيال يؤدي دوراً هاماً في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية إلا أنه قد يضطلع، في أحيان كثيرة، بدور أهم من دور العقل. ففي الحالات الكثيرة التي يعجز العقل ويصل فيها إلى درب مسدود، يتم اختراق السدود بأجنحة الخيال وتفتح حتى أمام العقل آفاقاً جديدة، ليصول ويجول فيها. بيد أن التحليق

بالخيال في جمهرة من أهل العلم والفكر قد لا. ينسجم كثيراً مع

حكم العقل، ناهيك بأن التحليق بالخيال في ميدان بكر لم تتحقق فيه بعد القدرة للصّول، والجول بمركب العلم والفكر المحض، ليس بالأمر المكروه، فكم من أحلام فتحت أمام العلماء والمفكرين سبل حل لمستقبل أكثر إشراقاً. وإذا كانت لغة العلم ثقيلة ذات لكنة في موضوع ما، فإن إطلاق سراح الخيال لا يعد أمراً مخالفاً للعقل. وبطبيعة الحال فإن الخيال المعني هنا ليس الخيال المجرد بل الخيال الذي يمكنه إيصالنا إلى شواهد علمية وعينية كبيرة

علينا، في سبيل تحديد معالم عصرنا الراهن، أن نتطلع إلى المستقبل، ولكي نتمكن من تصور مستقبلنا تصوراً سليماً ومقبولاً، فلن يكون أمامنا خيار آخر سوى أن نعي ماضينا ونألفه ونأنس به.

في الغد، سوف تخطو البشرية خطوات أبعد مما وصلت إليه حضارة اليوم، ولا شك عندي في مجيء ذلك الغد، وفي أن مَنْ سيبلغه أولاً إنما هو الذي يعي ماضيه ويتطلع في الوقت عينه صوب المستقبل، وليس المتحجرين التقليديين الرازحين تحت أغلال الماضي، ولا أهل الحداثة السطحيين المبهورين بهيمنة العصر وظواهره.

فلماذا إذاً لا نتطلع إلى الحضارة القادمة، ونبدع كل نوع من التغيير ينسجم معها ولا يعارض الدنو منها؟ ومن الطبيعي أن رؤية كهذه تحلق عالياً مبنية ومسبوقة بنظريتين نقديتين:

أولاهما: النظرة النقدية للتراث، والاستعداد لتقبل التغيير فيه، والثانية، هي النظرة النقدية للحداثة باعتبارها مرحلة عابرة في تاريخ حياة الإنسان، وليست آخر مراحل تكامل التاريخ. وبطبيعة الحال فإن استشراف المستقبل لا يعني إنكار الحاضر ورفضه.

إن الذين يصنعون الحضارة ورجال المستقبل تتحقق لهم درجة من الوعي والنمو والشجاعة، تمكّنهم من اكتساب جميع المعطيات الفكرية والميدانية لإنسان اليوم.

نحن لسنا محكومين بالذوبان في نظام الحضارة الحديثة إلا إذا كنا لا نؤمن بدور الحرية وإرادة الإنسان التي تتأثر بالطبع بالعوامل البيئية والتاريخية والاجتماعية، دون أن تكون أسيرة لها. بيد أننا لا يسعنا بحال تجاهل كل هذه الإنجازات الباهرة على صعيد العلم والاجتماع والسياسة. لِمَ لا نحاول إيجاد علاقة جديدة مع الوجود بذهابنا إلى أبعد من الحاضر، وذلك بالتسلح بنقد الحداثة والتراث معاً، وأن نكون أصحاب رؤية جديدة نقيم على ضوئها حضارة جديدة، وأن نُمثّل نحن مرحلة جديدة في حياة الإنسان، في وقت نرتكز فيه إلى ماضينا الذي أنتج حضارتنا، ونستفيد من معطيات الحضارة الحديثة الباهرة؟ لاسيما وأننا نمتلك في التاريخ سابقة حضارية تركت بصماتها على مصير العالم والإنسان؟

لِمَ لا نحاول ثانية إيجاد حضارة أخرى؟ وليس، بالطبع، بالرجوع إلى الماضي للوقوف عنده، وهي الرجعية بعينها، بل للارتكاز إلى قاعدة موثوقة ومطمئن، والانطلاق منها إلى أبعد من آفاق هذا العصر ونحن نحث الخطى نحو مستقبل يسنده الماضي والحاضر معاً؟

Palestine Center or Studies and Research (PCSR)

The "Palestine Center for Studies and Research" was established in 1996 in Gaza as an independent academic institution to help promote intellectual and political awareness within the Palestinian society.

To achieve its goals, the center concentrates on those political, economic, social, strategic and cultural issues which relate to Palestinian, Arab and Islamic concerns.

With the desire to make a contribution, the center has made the attempt to create an open and innovative academic environment for scholars, thinkers, and researchers.

In addition to its research and studies programs, the center provides a forum for public lectures, seminars, and specialized workshops.

In line with its mission, the center issues a series of publications that include; books, reports, occasional research papers as well as the "Palestine" magazine.

Orders and correspondences should be directly sent to:
PCSR
P.O. POX 1354
Gaza - Gaza Strip
Phone: 9727-820031
Fax: 9727-892931
E-mail: psr @ rannet.com